المشرق

محاضرة في حمص وماثرها

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

دُعينا في اوائل حزيران الاخير الى مدينة حمص لالقاء بعض المواعظ والارشادات لاهلها بنسبة عيدي القربان الاقدس والقلب الالهيّ فلبّينا الدعوة لتجديد علاقاتنا مع افاضل وادباء تلك الحاضرة . فوجدنا في الحمصيين من الكرامة واللطف ما اسر قلوبنا بحبّهم كما ان إقبالهم على استماع كلام الله كان يحبّب الينا الشغل بينهم فنخطب فيهم ثلث او اربع دفعات كلّ يوم فيسقط كلامنا في تربة جيّدة

وكان آخر ما طلبوا منّا قبل وداعنا ان نلقي عليهم محاضرة علميّة يُدعى اليها اماثل البلد من كلّ الطوائف والادباء فلم نر بدًّا من الاجابة الى ملتمسهم واخترنا لذلك موضوعاً يثير فيهم عواطف الحب الوطنيّ اعني مدينتهم حمص وماثرها . وجعلنا موعد الاجتماع أصيل يوم السبت الواقع في ٩ حزيران فعُقدت الحفلة في حينها وتشرّف ديرُنا بحضور كثيرين من وجوه المدينة واعيانها وارباب اعمالها مع نخبة من اكليروس الطوائف المختلفة

فلمّا انتهينا من القاء تلك المحاضرة التي استغرقت ساعةً ونصف الحّ علينا الحضور الكرام بان ننشرها بالطبع لتبقى لديهم تذكاراً وما كنّا وقتئذٍ كتبناها وانّما القيناها بداهةً فوعدناهم بأنّنا عند سنوح الفرصة سنفعل ان شاء الله وها نحن وافون بالوعد

مركز حمص

كان للقدماء في اختيار مراكز مدنهم النظر البعيد الصائب . فترى معظم البلاد التي احتلُّوها منذ سالف الاجيال لا تزال ثابتةً في مقامها على الرغم من تقلُّبات الدول وطوارئ الدهر . ولا غرو ان حمص من هذه المراكز التي دفع حسن موقعها القدماء الى اختيارها . فقربُها من نهر العاصي في مستوى البقاع ووقوع ارضها في نقطة دائرة كثيرة الحركة حافلة بسكّان الحضر والمدر في منتصف مسالك تجاريّة بين دمشق وحلب وبين الفرات والبحر المتوسط في ممرّ النهر الكبير كلّ ذلك كان من شأنه ان يُلفت انظار الاقدمين الى انشاء مدينة حيث قامت بعدئذٍ حاضرة حمص الجليلة مع طيب هوائها واعتدال مناخها

اسم حمص

لا نكاد نجد كاتباً يوثق به ذكر اصل اسم حمص ومعناهُ . قال الجغرافي روكاو (الجلد ٩ ص ٧٦٠) انّ اسم حمص تحوّل من إمِسّا (Emessa) وكَتَبَ غيرهُ Emesa او Hemesa بيد انّ هذا الرأيَ محمول على الظنّ بان المدينة يونانيّة الاصل وانّ الاسم يونانيّ . وعندنا انّ اسم حمص اقدم عهدًا من اليونان وان في صورته سمةً ساميّة مشتقة من اسم بعض الأعلام او من الاوصاف الدالّة على موقع المدينة . ورد في معجم البلدان لياقوت الرومي (٢ : ٢٣٩) انّ حمص « بلدٌ بناهُ رجلٌ يقال لهُ حِمْص بن المهر بن جان بن مكنف وقيل حمص بن مكنف العمليقيّ » وفي تاج العروس (٢ : ٣٨٣) سُميت حمص بحمص بن صهر بن حميص بن صاب بن مكنف . ولكن من هو حمص المذكور واين ومتى عاش فذلك من الرموز التي لا نعرف لها حلًّا . وظنّ البعض ان الاسم مشتقّ من الحماس فيكون معنى حمص مدينة الاقوياء . ولعلّ الصواب انّ الكلمة آراميّة بمعنى الارض المنبسطة لوقوع حمص في مستوٍ من الارض . ويؤيد ذلك في العربيّة « الحَمْصة » (والحاء تُبدل كثيرًا من الخاء) وهي البطن من الارض اللين الوطء . والله اعلم

قِدَم حمص

انَّ حمص كجارتَيها حماة وحلب في شمالي سوريَّة من المدن العريقة في القدم التي لا يُعرف اصلها. وكان الكتبة قبل زمن قليل يزعمون انَّها من بناء اليونان وهكذا روى ياقوت (٢: ٣٣٥) عن اهل السير الَّا انَّ رأي العلماء في عهدنا انَّها سبقت اليونان باجيال. والمرجَّح انَّها من عهد الآراميين الذين سبقوا عهد الحثيين في الالف الثاني قبل الميلاد. وقد زعم بعض الكتبة انَّها مدينة صوبا المذكورة في الكتاب المقدَّس في سفر يشوع. وليس لقولهم هذا حجَّة ثابتة. وقلعة حمص اقدم ابنيتها تشبه قلعتي حماة وحلب الصناعيَّتين والغالب على الظنّ انَّ بني آرام ابتدأوا بتشييدها فوق تلّ صغير ثم انجزت بناءها الدول التابعة وجعلوها على شكل هرم جوانبهُ مفروشة بصفائح الحجارة وحصَّنوا اعلاهُ بالابراج. ويبلغ محيط دائرة هذه القلعة تسعمائة متر في اسفلها. وعلى سطحها الى اليوم اعمدة لهيكل أقيم هناك فخرب. وما لبث ان احتمى في ظلّ هذه القلعة بعض من القبائل وبها اصبحت حمص مدينةً وجدها بنو آرام نعم المركز لتجارتهم وبلدًا وسطًا بين امم آسية الوسطى وسواحل البحر المتوسط

ثمَّ تقدَّمت في غضون ذلك امَّة جديدة منحدرةً من شمالي البلاد من جبال القفقاز تُعرف بالامَّة الحثيَّة فانبثَّت في جهات الاناضول وفي شمالي سوريَّة وغربيّ جنوبيّ الفرات فلم تزل تقوى وتشتدّ ازرًا الى أن غلبت العنصر الارامي واستولت على مدنهِ المشهورة ككرميش وحماة واتَّخذت مدينة قدس على شاطئ بحيرة حمص كحاضرتها الدينيَّة. وهي المدينة التي قامت فوقها بعد نكبات الزمان اطلال تلّ بني مَنْد كما استدلّ اليها السير غرتيار والابوان البريطانيان سبستيان رنڤال وهنري لامنس ثمَّ وقف على عاديَّاتها الاثري الافرنسيّ السيو موريس پيزار بعد حفرياته في السنتين ١٩٢١ و ١٩٢٢ فحفرها الحثيون وحصَّنوها وسكنوها بامان نحو مئتي سنة وعاشت حمص متمتِّعةً بسلامها

الَّا انَّ الحثيين بامتداد سلطتهم ورقي دولتهم اثاروا عليهم غضب الفراعنة الذين في القرن الرابع عشر قبل المسيح زحفوا على بلادهم وناشبوهم القتال فتغلبوهم غير مرَّة في عهد تحوتمس الثالث وساتي الاوَّل ولاسيَّما رعمسيس الثاني الذي كسر شوكتهم

في واقعة قدس نحو السنة ١٢٧٥ قبل المسيح واستولى على بلادهم ثم سالمهم وصاهر ملكهم . وقد وجدوا بين آثار الحفريّات الاخيرة في تلّ نبي مند آثاراً مصريّة عديدة من عهد هؤلاء الفراعنة وكذلك في حمص وجوارها وُجدت سابقاً مثل هذه الآثار كخزفيّات وحليّ واسلحة ودُمًى وتماثيل من الصناعة المصريّة . ما يثبت تلك الصلات الثامنة عشرة الى العشرين على جنوبي مملكة الحثيين

على انّ الحثيين لم يستسلموا الى الفشل والقنوط وهم رجال بأس مختبرون بآداب الحرب فلم يزالوا يراعون احوال المصريين ويراقبون ضعفهم حتى اعلنوا بالاستقلال . بيد انّ الفتوحات البابليّة والاشوريّة وجدت الحثيين في طريقها الى سوريّة الساحليّة والى مصر فدارت بينهم الحروب الطويلة فكانت بينهم سجالاً حيناً لهم وحيناً عليهم الى ان قامت في العراق دولة جديدة حمل ملوكها بجيوشهم ورجلهم على بني حث وكرّروا عليهم الغارات حتّى انهكوا قواهم وشتّتوا شملهم فصاروا الى خبر كان وذلك في القرن الثامن والسابع قبل المسيح على عهد الملك سرغون ثم سنحاريب ثمّ اسرحدُون

وبقيت آثار الحثيين مجهولةً مدة اجيال طويلة حتى انتبه اليها في عيدنا قوم من كبار العلماء في فرنسة وانكلترّة والمانية فجمعوا في متاحفهم ما وجدوهُ منها واستخرجوا بالحفريّات ما كان محجوباً عن العيان فدرسوا هذه الآثار واستنتجوا منها النتائج المهمّة لتعريف الحثيين وآثارهم وصناعتهم وتاريخهم ودينهم لولا انّهم حتى الآن لم يفكّوا طلسم كتابتهم . وهذه المعلومات افادت انّ للحثيين في بنائهم وهندستهم وفنونهم الصناعيّة كالرسم والنحت والتصوير ما يشهد لهم بالتقدُّم وابتكار الاعمال على طراز خاصّ بهم كما بين ذلك الاثري الشهير المسيو بوتيار (É. Pottier) في مجلّة سيريا (Syria I, 169, 264 et II. 6,)

ولا رَيب انّ المدن الخاضعة لحكم الحثيين ومن جملتها حمص استفادت من هذه الفنون وجاراهم اهلها في مصنوعاتهم . وهذا يقال ايضاً في الدين فانّ الحثيين كانوا قد ألّهوا قوّات الطبيعة كالانواء والرعد والسحاب فاضافوا اليها شيئاً من الديانات التي وجدوها عند الامم القريبة منهم كعبادة الشمس والقمر والسيّارات والبعل

وعشتروت وآلهة مصر. وقد وُجدت من كلّ هـذه المعبودات آثار شتى في حمص او نواحيها

حمص في العهد اليونانيّ والرومانيّ

بعد انقراض الدولة الحثّيّة أُصيبت حمص بالخمول ولم تنهض من كبوتها الّا في عهد اليونان بعد فتوحات الاسكندر لانحاء الشام وتملُّك السلوقيين عليهـا . فنالت تجارتها بعض الرواج

على انّ اهلها كانوا واقفين بالمرصاد لملوك سوريّة السلوقيين واذ لحظوا ما صارت اليه دولتهم من الضعف في اواخر القرن الثامن قبل المسيح والحروب منتشبة بينهم وبين ملوك البطالسة وباتت سواحل الشام في شبه الفوضى جاهر الحمصيّون بالاستقلال ودعوا بعض امرائهم الوطنيّين ليتولّى تدبيرهم . وقد ذكرهُ اسطرابون الجغرافيّ (ك ١٦ ف ٢) ودعاهُ باسم سَمِيفراموس وفي تركيب اسمهِ « سَمْس » او « شمس » احد الدلائل على عبادة الحمصيين لكوكب النهار . ولعلّ هيكل الشمس معبودة الحمصيين تشيَّد في ذلك الوقت ثمّ زادوهُ حسناً ورحباً في عهد الرومان

ولسَمِيفراموس المذكور خلفٌ باسمهِ ملك بعدهُ في القرن الاوّل للمسيح ورد ذكرهُ في كتاب العاديّات اليهوديّة ليوسيفوس (ك ١٩ ف ٨) كان معاصراً لهيرودوس اغريبا الاوّل وحليفاً للرومان. ثمّ قام بالامر بعدهُ ابنهُ عزيز ثمّ اخوهُ صُهَيم او سُحَيم الذي تبع الرومان في حملتهم على القدس في أيّام شسبيان وابنهِ طيطوس كما ذكر المؤرخ تاكيتوس (ك ٢ ف ٥١)

وكانت اللغة اليونانيّة قد انتشرت في حمص وجهاتها في عهد السلوقيين بين الطبقة الراقية من الاهلين الّا انّ الشعب لم يزل يلهج بلغتهِ الارامية

والآثار اليونانيّة في حمص عديدة لاسيّما الكتابات البنائيّة والمدفنيّة والأعلام ما يدلُّ على انتشار تلك اللغة في تخومها على عهد الدولة السلوقيّة بل الى عهد الرومان من جملتها كتابة ورد فيها ذكر ملك حمص سميفرامس الثاني (Waddington-Le Bas, n°2567) على هذه الصورة ΚΑΙΟC ΙΟΥΛΙΟC ΦΑΒΙΑ CΑΜCΙΓΕΡΑΜΟC قيل انّ هـذه الكتابة كانت على البناءة الواقعة غربي البلـدة قريباً من المقبرة التي

يدعوها الحمصيُّون الصومعة وبعضهم يسميها قبر القيصر وهي كالبرج العالي المربَّع البالغ علوُّه ١٥ متراً ذي النقوش الهندسيَّة والحجارة الملوَّنة . وقد وجد حضرة الاب لامنس سنة ١٨٩٩ كتابةً ثانية يونانيَّة باسم الملك المذكور في احد اسراب حمص مع كتابات اخرى ورد فيها اسماء بعض الاعيان كصُهَيْم وتمثَّلات ما بعثهُ الى الظنّ انَّ ذاك السرب كان مدفناً لأسرة حمص الملكيَّة (١

وهذه السلالة الملكيَّة بطل حكمها على حمص في عهد القيصر دوميانوس في السنة ٨٠ للمسيح فصار يقوم بتدبيرها عُمَّال من قبل رومية . فاخذ الرومان كألوف عادتهم يشيدون في حمص الابنية الفخيمة وينشئون الطرق ويعزّزون المنشآت الاقتصاديَّة والفنيَّة فاصبحت حمص بفضلهم مدينة راقية ذات ثروة وبهاء فازدحم فيها اهل البلاد المجاورة

وقد ادركت مقاماً ارفع بما نالها من الشرف بتبوّء السلالة السوريَّة على عرش القياصرة في رومية حاضرة العالم . وذلك في القسم الثاني من القرن الثاني للسيد المسيح لمَّا ضبط سبتيموس ساويروس عنان الملك (١٩٣–٢١١ م) . أجل لم يكن اصلهُ من سوريَّة اذ كان مولدهُ في لبتيس عن اعمال افريقية سنة ١٦٩ وانَّما اشتهر في سوريَّة قبل جلوسهِ على السدَّة الرومانيَّة وكان اعاد السلام لاهلها ونظَّم شؤونها . ولمَّا بلغهُ ما كانت عليهِ جوليا دومنا من سلالة ملوك حمص من العقل والجمال اقترن بها فكانت لهُ نِعْمَ المساعدة في كلّ مشروعاتهِ الجليلة ومنشآتهِ لخير الدولة وبفضلها قرَّب الى شخصهِ ثلاثة من اكبر فقهاء الرومان وكلهم من سوريَّة اعني پاپنيان وألپيان وبولس الصوري والمرجَّح ان ألپيان كان مولدهُ ومنشأهُ في حمص . ثمَّ قام بالملك بعد ابيهِ باسيانوس الملقَّب بكركلَّا وهو اسمٌ يُطلق امرَ الجنود بلبسهِ (٢١١–٢١٥) وكان مولدهُ في حمص وقد رسم على نقودهِ صورة هيكل الشمس في تلك المدينة وانعم على وطنهِ حمص بامتيازات المدن الرومانيَّة

وكان لجوليا دومنا اختٌ تدعى جوليا ميزا مولودة مثلها في حمص لها ابنتان سُهَيمة ومَتيناً ولكل منهما ولد صار قيصراً فابن سهيمة يدعى اليتوس بسيانوس واشتهر باسم هليغبال وابن متينا الكسيانوس عُرف باسم اسكندر ساويروس . وكان

١) اطلب رحلتهُ الى بلاد حمص (L'Emésène, n^os 59-63)

اقاربهما خصّصا الولدين لاكرام الشمس معبودة الحمصيين بل دُعي بسيانوس الى سدانة الهيكل وهو في ريع الشباب . ثمّ قُتل جدُّهُ كركلّا بدسائس رئيس الجنديّة مكرينوس الذي نادى بالملك لنفسه لكن الجند ما لبثوا ان شغبوا عليهِ فقتلوهُ ونصبوا حفيدهُ ابنَ سهيمة قيصرًا رغمًا من حداثة سنّهِ بيد انهُ تغلّب عليهِ نزق الشباب واتى من الاعمال المستقبحة ما تسوّدت بتدوينهِ صفحات التاريخ . فاتّخذ اسم الههِ ودُعي هليغبال ثمّ نشر في رومية عبادة الشمس حتّى انهُ كان يضحّي لها اطفال اعيان رومية فكانت خاتمة هذه الفظائع أن ثار عليهِ الجنود فقتلوهُ ورموا جثته في نهر التيبر واقاموا بدلًا منهُ ابن خالهِ اسكندر ساويروس (٢٢٢–٢٣٦) فكان هذا مثال الحكمة والصلاح وحُسن السياسة وكان يرتشد بمشورة امّهِ منيًا التي تنصّرت على يد معلّم الكنيسة اوريجانوس الشهير وبلغ بهِ ميلهُ الى النصرانيّة الى ان نصب تمثال السيد المسيح في بلاطهِ وعزّز تحوم المملكة وانشأ المنشآت الخيريّة والمشروعات الوطنيّة التي خلّدت اسمهُ وشرّفت دولة الرومان وانّما ذهب ضحيّة الواجب مع امّهِ فقتلهما ارباب الثورة بينما كانا ساعيين في الدفاع عن المملكة بازاء برابرة الجرمان

وكان معاصرًا لاسكندر ساويرس البيانيّ والكاتب اليوناني هليودورس ولهُ روايات حسنة ختمها بذكر اسمهِ فقال : انّ مؤلفها هليودوس الفينيقي الحمصيّ ابن الشمس »

وفي ذاك القرن الثالث احرزت لها اسماً شريفاً ملكة تدمر زينوبيا (زينب) فطمح بصرها الى املاك الرومان حتى اهتزّ لمحاربتها العالم الروماني بعد ان كادت تبسط سلطتها على الشام ومصر وانحاء العرب . فدارت عليها الدوائر في واقعة جرت بين جيوشها وجيش اورليان القيصر قريباً من حمص سنة ٢٧٢ م

وكانت هذه المملكة في أيام عزّها اتّخذت مشاهير الرجال وذوي العقول الثاقبة والعلوم الواسعة ليكونوا من ندمانها ويزينوا بلاطها وكانت هي تتفقّهت بآداب اليونان على انّ بين جلسائها قد اصاب السهم الملّي احد الحمصيين ألا وهو لُنجينوس الفيلسوف من تلامذة اوريجانوس الذي لقّبهُ معاصروهُ بالمكتبة الحيّة لسعة معارفهِ ووفرة علومهِ . وكانت امُّ لنجينوس افرونتونيدة حمصيّة ايضاً لها شقيق اسمهُ

افرونتون الحمصيّ بلغ به رقيُّهُ في الآداب الى أن عُهد اليهِ تدريس الخطابة في عاصمة اليونان

ومما يُنسب الى الامبراطور ديوكليسيان على ما ورد في تلمودَي اورشليم وبابل انَّ هذا القيصر الروماني هو الذي سعى بحفر بحيرة قطينة او بحيرة قدس ليختزن بها منبع مياه العاصي فيستمدّ الحمصيُّون قسماً منها لسقي المدينة وريّ مزروعاتهم. والمرجَّح ان البحيرة اقدم عهداً منهُ. وقد ذُكر في تقويم البلدان (ص ٤٠) انَّ السدّ ينسب الى الاسكندر

حمص النصرانيَّة

لا بدع انَّ النصرانيَّة دخلت حمص بعد السيّد المسيح بزمن قليل رغماً مما لقيتهُ في سبيلها من العقبات في تلك المدينة الوثنية بعبادة الشمس. وقد جاء في تقليد الكنيسة اليونانيَّة انَّ حمص وحماة سُقِّف عليهما اثنان من تلاميذ بولس الرسول وهما غايوس وأرستركوس المذكوران في اعمال الرسل (١٩: ٢٩ و ٢٠: ٤) وكان كلاهما من مقدونية ورافقا رسول الامم الى آسية عند عودتهِ الى اليهوديَّة ثمَّ سُقِّف غايوس على حمص وارستركس على حماة

وتشرَّفت حمص في عهد مرتس اوريليوس بجاوس احد ابنائها على كرسي القديس بطرس الروماني ألا وهو القديس البابا نيقيطا ابن يوحنَّا السوري الذي ختم حياته بالاستشهاد سنة ١٦٦ م

ولنا في تنصُّر مَتيًّا ام القيصر اسكندر ساويروس في اوائل القرن الثالث للمسيح اثرٌ آخر عن النصرانيَّة في حمص. وفي اواسط هذا القرن اشتهر القديس غلقتيون وامرأتهُ اپيستام سنة ٢٥٠ م وكانا مولودين في حمص فتنسَّكا في طور سينا ثمَّ قُتلا شهيدين على عهد الملك دقيوس سنة ٢٥٠ كما ورد في اخبار القديسين لمتافرستوس (Migne, P. G. vol. 116, col, 120) وعيدهما واقع في الكنائس السريانيَّة في ٦ تشرين الثاني

وفي اواخر هذا القرن الثالث او اوائل الرابع استشهد في حمص احد اساقفتها المدعوّ يلوانس مع شمَّاسهِ لوقا وقارنهِ موسيوس. وقد ذكرهم اوسابيوس اسقف

القصريَّة في تاريخهِ الكنسيّ (ك ٨ ف ١٣ و ك ٩ ف ٦) والخبر هناك «انَّ سلوانس كان طاعناً في السنّ ودبّر كنائس حمص مدَّة اربعين سنة» فألقي للسباع مع شمَّاسيهِ بامر الملك مكسيميانوس. فيقول اوسابيوس وهو معاصرهُ انهُ «دبّر كنائس حمص» دليلٌ على انهُ كان رئيسَ اساقفتها وتحت حكمهِ اساقفة البلاد المجاورة لها. وهذا افضلُ شاهد على نموّ النصرانيَّة في حمص وجوارها (١

وجاء في ميناون الكنيسة اليونانيَّة ذكرُ شهيد آخر حمصي يُدعى ديودورس مات صلباً في ذلك الاضطهاد

ومهما لم ينلهُ الحمصيُّون ويكرمهُ الروم في كنيستهم حتَّى الآن القديس الشهيد يوليان او اليسان المتطبب وكان بطبّهِ الروحي افضلَ منه بطبهِ الجسديّ جذب الى الايمان كثيرين من مواطنيهِ فبلغ خبرهُ مكسيمينوس غاليريوس وقيل مكسيميانوس فعرض عليهِ السجود لاصنامهِ فأبى بكل حماس ومات شهيد ايمانهِ. والروم في حمص يرتأون انَّ قبرهُ في كنيستهم. وعيدهُ واقع في ٦ شباط كالشهداء السابق ذكرهم

ولمَّا خرجت النصرانيَّة ظافرةً في عهد قسطنطين الكبير حصلت نهضة جديدة لهذا الدين في حمص. وبُنيت حينئذٍ كنيستهم الكبيرة التي كانت تُعتبر من جملة اعظم كنائس الشام نسبها البعض الى قسطنطين نفسهِ وقال غيرهم انَّ هيلانة امَّهُ هي التي بنتها. ولمَّا عقد سنة ٣٢٥ المجمع النيقاوي حضرهُ اناتوليوس اسقف حمص وحرم مع اربابهِ اريوس وانصارهُ

وقام من بعدهِ خلفاً لهُ الانبا اوسابيوس الذي كان في عهد قسطنطيوس ابن قسطنطين من علماء زمانهِ متضلعاً بآداب اليونان صنَّف تآليف عديدة دينيَّة وأدبيَّة. وقد اثنى عليهِ القديس هيرونيموس فنظمهُ في جملة المشاهير الذين دوَّن سيرهم

وفي ذاك القرن الرابع سُقّف على حمص نمازيوس صديق القديسين العظيمين باسيليوس وغريغوريوس ثم قرياقوسُ الذي دافع عن القديس يوحنَّا فم الذهب. وحضر بولس اسقف حمص المجمع الافسي مع المستقيمي الايمان سنة ٤٣١ وحضر بورفيريوس المجمع الخلقيدوني باسم اسقف حمص اورانيوس سنة ٤٥١

(١ اطلب اعمال البولنديين في المجلَّد الاوَّل من شباط (ص ٧٨٥) (Boll. I vol. de Février. 785-786)

وفي عهد اورانيوس المذكور وُجد ثاني مرَّة في حمص رأس القديس يوحنَّا المعمدان وكان وُجد مرَّة أولى في اورشليم ثمَّ فُقد . وبقي زمناً طويلاً مكرَّماً في حمص الى ان نُقل الى القسطنطينيَّة ثم الى رومية في اوَّل أيام العرب والمسلمون يزعمون انَّ تلك الذخيرة الثمينة لا تزال في حوزتهم في الجامع الكبير المعروف بجامع النور ومنهم من يزعم انَّها في جامع دمشق الاموي وبعضهم يقول انَّ الرأس المبارك في جامع يحيى في بيروت . ولاكتشاف رأس يوحنا الصابغ عيدٌ يُروى ذكرهُ في الكنيسة اليونانيَّة في ٢٤ حزيران وفي الكنائس السريانيَّة في ١٦ شباط

وفي القرن الخامس للمسيح اشتهرت في حمص احدى النساء الفاضلات المدعوَّة متروبا من اعيان المدينة خصَّت نفسها بعد وفاة زوجها لكل المشروعات المبرورة فماتت برائحة القداسة هي وابنتها ثيودوتا والكنيسة اليونانيَّة تذكرهما في تشرين الثاني

وفي اواخر القرن الخامس اشتهر في الكنيسة اليونانيَّة القديس رومانوس فكان هذا حمصيَّ المولد وخدم كنيسة بيروت وذاع صيتهُ بما نظمهُ من الاناشيد التقويَّة والتسابيح الدينيَّة التي ادرجها الروم في كتبهم الطقسيَّة

وأنعم الله على حمص في القرن السادس للميلاد بمباينة فضائل احد ابنائها القديسين وهو البارّ سمعان الملقَّب بصالس اي الجاهل الذي عاش في جوار حمص ممارساً لجميع فضائل النسَّاك الَّا انَّهُ فراراً من مجد العالم تظاهر بالبله والجهل ليحظى بازدراء البشر واحتقارهم فاظهر الله حكمتهُ العجيبة . توفي سنة ٥٨٨

وقد بقي اهل حمص على ايمانهم المستقيم الى ظهور العرب دون أن تؤثر فيهم بدعتا نسطور واوطيخا ويعقوب البرادعيّ . وبين الكتابات اليونانيَّة التي وُجدت في المدينة وجوارها كتابات نصرانيَّة الواحدة منها من السنة ٨٨٠ للسلوقيين (٥٣٨ م) عليها صورة الصليب وفيها استغاثة بالعذراء مريم واسم بعض الكهنة نشرها حضرة الاب لامنس . وممَّا وجد في حمص ايضاً صليب من البرنز طولهُ ٣٠ سنتمتراً في ١٤ س عند عارضتيه عليهِ كتابةٌ يونانيَّة مؤدَّاها استغاثة الى القديس جرجس لاجل المسمَّى مزمبريوس والمظنون انهُ هو قائد الجيوش الذي عاش سنة ٥٨١ م . نشر هذا الاثر المسيو شلومبرجر الاثريّ الشهير

حمص في عهد العرب

فتح العرب مدينة حمص بعد موقعة اجنادين وفتح دمشق في السنة ١٦ للهجرة كان فتحها على يد ابي عبيدة بن الجرّاح وكان هذا بعد فروغه من دمشق قدّم امامهُ سرايا من جندهِ فلمّا توافوا الى حمص قاتلهم اهلُها وامتنعوا مدّة لمناعة اسوارها ثمّ طلبوا الامان وقيل انّ العرب اخذوها بالحيلة. وكان على المسلمين السَّمْط بن الاسود الكنديّ فصالحهم على مائة الف وسبعين الف دينار (والدينار نحو ١٢ فرنكاً ذهباً من نقودنا اليوم) ثمّ قدم ابو عبيدة حمص على طريق بعلبك وأمضى صلح السَّمْط وأمّن اهل حمص على انفسهم واموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وارحائهم واستثنى عليهم رُبع كنيسة يوحنّا للمسجد واشترط الخراج على من اقام منهم وقُسمت حمص خططاً بين المسلمين فسكنوا في كلّ موضع جلا اهلهُ او ساحة متروكة (راجع فتوح البلدان للبلاذري ١٣٠–١٣١)

ثمّ قسم العرب بلاد الشام الى ايالات يدعونها اجنادًا فكانت حمص على رأس احد هذه الاجناد لعظم شأنها وقد بلغت وظيفة اهلها مع قنسرين والعواصم لبيت المال الى ثمانمائة الف دينار (البلاذريّ). وفي عهد الرشيد بلغت وظيفة مدينة حمص وحدها ٣٢٠٫٠٠٠ دينار والف حمل من الزبيب (كتاب الوزراء)

وفي السنة ٥٤٣ (٦٦٥ م) اخبر تاوفانوس المؤرخ انّ المسلمين ثاروا على نصارى حمص فمات اسقفهم شهيدًا

ولمّا ملك مروان الثاني المعروف بالحمار وهو آخر ملوك بني اميّة عصى عليه اهل حمص فسار اليهم وحاصر مدينتهم الى أن فتحها ومثّل باهلها

وممّا كتبهُ ياقوت في معجم البلدان عن حمص (٢ : ٣٣٨) ما يشتمُّ منهُ روح التعصُّب على اهلها وهو من حماة قرينة حمص فنرى كلامهُ على علّاته قال :

«ومن عجيب ما تأمّلتهُ من امر حمص فساد مواشيها وتربتها (كذا!) اللذين يفسدان العقل حتّى يُضرب بحماقتهم المثل. انّ اشدّ الناس على عليّ رضي بصفّين مع معاوية كان اهل حمص واكثرهم تحريضاً عليهِ وجدًّا في حربهِ فلمّا انقضت تلك الحروب ومضى ذلك الزمان صاروا من غُلاة الشيعة حتى انّ في اهلها كثيرًا ممّن رأى مذهب النُّصَيريّة واصلهم الاماميّة الذين

يسبُّون السلف فقد التزموا الضلال اوّلاً واخراً فليس لهم زمان كانوا فيهِ على الصواب »

وامل سبب ذلك موقع حمص بين بلاد مختلفة فيدخلها اخلاط الناس ويمتزجون باهلها . وكذلك التقلّبات التي حدثت لحمص فكثيراً ما تحاملت عليها الدول فملكها بنو عبّاس وفتحها ابن طولون وصارت الى بني حمدان فاقطعها سيف الدولة ابا فراس الحمدانيّ الشاعر ثم بكجور واطاعت للفاطميين ثم صارت مدّةً تحت حكم الصليبيين دون ان يملكوها ملكاً ثابتاً . ثمّ ملكها نور الدين والامير شيركوه ثم صلاح الدين والأيوبيُّون . وفي ايّامهم وقعت تلك الزلازل الهائلة التي ذهبت بكثير من مدن الشام وكانت حمص من جملة المدن المدمّرة فأثرت هذه النكبات بتلك المدينة الزهراء وكادت تلحقها بالدقعاء . ثمّ اصيبت بكوارث اخرى في عهد المغول الى ان تحسّن حالها نوعاً في عهد ممالك مصر

ولم تخلُ حمص في زمن العرب من المفاخر فانّ قوماً من ابنائها تخرّجوا بآداب اليونان فنقلوا تآليفهم الى العربيّة ذكر منهم ابنُ ابي اصيبعة في كتاب طبقات الاطباء ابنَ ناعمة واسمهُ عبد المسيح بن عبدالله الحمصي الناعمي وزروبا بن الناعميّ الحمصي وهلالَ بن هلال الحمصي وغيرهم

وفي مقابر حمص الاسلاميّة قومٌ من اهل الزهد والعلم ولاسيما الحديث . والحمصيُّون يفتخرون منذ زمن قديم بخصوصهم على قبر خالد بن الوليد المعروف بسيف الله وان لم يتّفق العلماء على مكان وفاتهِ أمات في حمص ام في المدينة فاقاموا لهُ مشهداً ثمّ ابدلوهُ في عهدنا بذاك الجامع البديع المبني على طراز جامع ايّا صوفيّا

ولكتبة العرب في تلك الحقبة اوصاف لحمص تنسخ نوعاً ما كتبهُ ياقوت في حقّها . قال الاصطخري (ص ٦١) :

«مدينة حمص في ستر خصبة جدًّا من اصحّ بلدان الشام هواء وتربةً . في اعلاها جبال منفرط وليس بها عقارب ولا حيّات ولها مياه واشجار وزروع كثيرة واكثر زروع رساتيقها عذيٌّ . بها كنيسة بعضها مسجد جامع وبعضها كنيسة وهي من اعظم كنائس الشام وعامّة طرق حمص خروشة بالحجارة

ومثلهُ قال ابن حوقل (ص ١٤٧) الّا انّ حمص في وقتهِ كان الروم « دخلوها واتوا على سوادها واخربوها» . وقال ابو عبدالله المقدسي في احسن التقاسيم (ص ١٥٦) :

حمص ليس بالشام بلد أكبر منها وفيها قلعة متعالية عن البلد تُرى من خارج . أكثر شربهم من ماء المطر ولهم ايضاً نهر . ولمَّا فتحها المسلمون عمدوا الى الكنيسة فجعلوا نصفها جامعاً عنده بالسوق قبَّة على رأسها شبه رَجُل من نحاس واقف على سكة تدير هذا الارياح الاربع . وفيه اقاويل لا تصحّ والبلد شديد الاختلال متداعٍ الى الخراب والقوم حمقى (كذا) والاسعار بها رخيصة . . . والقصبة قريبة من البادية وبها طيّبة

وقال الادريسي (ص ١٣) :

امَّا ارض حمص فانَّ مدينتها حمص وهي حسنة في مستوٍ من الارض وهي عامرة بالناس والمسافرون يقصدونها بالامتعة والبضائع في كلّ فنّ واسواقها قائمة ومسرّات اهلها دائمة وخصبهم رغد ومعايشهم رخيصة وفي نسائها جمال وحسن بَشَرة . وشرب اهلها من ماء يأتيهم في قناة من قرب قرية جوميَّة والمدينة منها على مرحلة ممَّا يلي دمشق ونهر الأُرُنط المسمَّى المقلوب يجري على باجا بمقدار رمية سهم ولهم عليه قرًى متَّصلة وبساتين واشجار واهر كثيرة ومنها تجلب الفواكه الى المدينة وكانت في مدَّة الاسلام من اكثر البلاد كروماً فتلف اكثرها وثراها طيّب للزروعات وافتاء الثلّات وهواؤها اعدلُ هواء يكون بالشام . . . وبها على القبَّة العالية التي في وسطها صنم نحاس على صورة الانسان الراكب يدور مع الريح حيثما دارت . . . وجميع ازقَّتها وطرقها مفروشة بالحجر وزراعتها مباركة كثيرة وزروعها تكتفي بالبعير من المطر والذي وبها مسجد جامع كبير اكبر جامع مدن الشام

ومن اخطر ما ورد عن حمص ما كتبهُ ابن جبير في رحلته حيث قال (٢٥٧) وقد زارها في عهد الصليبيين :

حمص فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لمبين مُبصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسيط من الارض عريض مداهُ ، لا يخترقهُ النسيمُ بمراهُ ، يكاد البصر يقف دون منتهاهُ ، أفيح أغبر ، لا ماء ولا شجر ، ولا ظلّ ولا ثمر ، فهي تشتكي ظلماها ، وتشتي على البعد ماءها ، فيُجلب لها من نهرها العاصي وهو منها بنحو مسافة الميل فطيف طُرَّة بساتين تجتلي العين خضرتها ، وتستغرب نضرتها ، ومنبعهُ في مغارة بسفح جبل فوقها بمرحلة بموضع يقابل بعلبك اعادها الله وهي عن يمين الطريق الى دمشق . واهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والشرس بالعدوّ لمجاورهم اياهُ وبعدهم في ذلك عن اهل حلب . فأحدُ خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ونسيمها الميسون تخفيقهُ وتجسيمهُ ، فكأنَّ الهواء النجديّ في الصحَّة شقيقهُ وقسيمهُ ، وقبليّ هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ، عاصية غير مطيعة ، قد تميَّزت وانحازت بموضعها عنها . وبشرقيّها جبَّانة فيها قبر خالد بن الوليد رضي وسيف الله المسلول ومعهُ قبر ابنهِ عبد الرحمن وقبر عبيد الله بن عمر رضهم . واسوار هذه المدينة في غاية المتانة والوثاقة مرصوصٌ بناؤها بالحجارة الصمّ السود وابراجها ابواب حديد سامية الإشراف هائلة المنظر رائعة الاضلال والإتانة تكتنفها الابراج المشيَّدة الحصينة . واما داخلها فما شئتَ من بادية شمّاء خلقة الارجاء ، ملفَّقة البناء ، لا اشراق لآفاقها ، ولا رونق لاسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنفاقها ، . . . وبها مدرسة واحدة . . .

ووصف شمس الدين الدمشقي حمص وجندها بعد ابن جبير فقال (ص ٢٠٢):

ومن جنود الشام حمص وهي مملكة حسنة وبها كرسيّ الملك ودار الامارة ونيابة السلطنة وهي اصغر ممالك الشام الثانية التركيّة وآخرها رتبةً. وحمص مدينة قديمة قسى سوريا (كذا) ماؤها وهواؤها صحيح ... ومن حسن بناء حمص انهُ لا يوجد بها دار الّا وتحتها في الارض مغارة او مغارتان وماء ينبع للشرب وهي مدينة فوق مدينة واهل مدينة حمص يوصف عامّتهم بقلّة العقل ويُحكى عن سوقتهم حكايات شبيه الخرافات

وكرّر ابو الفداء في تقويم البلدان (ص ٢٦١) ما كتبهُ غيرهُ. الّا انهُ اتّسع في وصف بحيرة قدس فقال (ص ٤٠):

بحيرة قدس وهي بحيرة حمص طولها من الشمال الى الجنوب نحو ثلث مرحلة وسمّتها طول السدّ وهي مصنوعة على نهر الأرنط فانهُ قد صُنع في طرف البحيرة الشمالي سدٌّ بالحجر من عمارة الاوائل ويُنسب الى الاسكندر. وعلى وسط السدّ غرقًا وطربًا ١٢٨٧ ذراعًا وعرضًا ١٨ ذراعًا ونصف ذراع وهو حابس الماء العظيم بحيث لو خرب السدّ سال الماء وعُدمت البحيرة وصارت نهرًا وهي في ارض مستوية وهي عن حمص بعض يوم في غربها ويصاد بها السمك

ومرّ ابن بطوطة في حمص في القرن الرابع عشر للمسيح فوصفها بقولهِ (١ : ١٤٠)

سافرتُ الى مدينة حمص وهي مدينة مليحة ارجاؤها مزنفة، واشجارها مورقة، وانهارها متدفّقة، واسواقها فسيحة الشوارع، وجامعها متميّز بالحسن الجامع، وفي وسطه بركة ماء. واهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله وعليهِ زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء

ثمّ دخلها في ايّام الوباء سنة ٧٤٧هـ (١٣٤٨م) فكان عدد الموتى يبلغ ٣٠٠ في اليوم. هذا مجمل ما قالهُ كتبة العرب عن حمص يتناول وصفهم احوالها الى آخر عهد مماليك مصر واوّل ظهور الاتراك

حمص في عهد الاتراك الى هذا الزمان

لمّا انتصر السلطان سليم الاوّل على قانصوه الغوري في سهول دابق قريباً من حلب سنة ١٥١٦ دخلت سوريّة في حكم الدولة العثمانيّة فما عتّمت مُدنها ان فتحت ابوابها للسلطان دون مقاومة كبيرة الّا دمشق التي فُتحت عنوةً ونُهبت. واذعنت

حمص كغيرها لامر الاتراك . ثمَّ اقام السلطان سليم نائبَ دمشق جانبردي الغزالي نائباً على الشام ليثبته على فتحه لهُ دمشق التي كان يتولاها باسم ملوك مصر . فاحسن الغزالي معاملة الاهلين واستمال اليه قلوبهم الى ان مات السلطان سليم وخلفهُ ابنه السلطان سليمان القانونيّ . فدعا الناس الى نفسه وخلع الطاعة لدولة الاتراك وتسمّى بالملك الاشرف وانضمَّ اليه قبائل من الاكراد والتركمان فاسرع السلطان سليمان وارسل لمحاربته جيشاً جمعهُ في الاناضول تحت قيادة فرحات بك العثماني فالتقى الجيشان قريباً من دمشق وقُتل الغزالي في اواخر كانون الثاني من السنة ١٥٢٠

ثمَّ اصبحت مذ ذاك الحين بلاد الشام مقسَّمة الى باشويّات او بيكاربكيّات . وكلّ باشوية تُقسم الى سناجق . وكانت حمص احد السناجق الخمسة المنوطة بباشوية طرابلس اعني طرابلس وحمص وحماة وسلمية وجبلة

وكان السلاطين في الوقت ذاتهِ اقطعوا اراضي الشام بعض بيوت الامراء كبني حرفوش وبني سيفا وبني عسّاف وبني معن وبني شهاب ويرجعون اليهم لجمع الخراج والاموال الاميريّة فحصل بسبب انقسام هؤلاء الامراء ومنازعاتهم ثم مطامع الباشوات حروب لا تُحصى . ولا يسعنا ذكر ما جرى لحمص من النكبات والفجائع من جرّاء ذلك مدَّة ثلاثمائة سنة الى ان صارت الشام تحت قبضة المصريين في عهد محمّد عليّ وابنهِ ابرهيم باشا فانَّ ابرهيم انتصر على عبدالله باشا عامل السلطان في واقعة حمص في ٢٧ ايّار سنة ١٨٣٢

وبقيت حمص تحت حكم المصريّين ثماني سنين الى سنة ١٨٤٠ وقد رأى ابراهيم باشا تشبُّثها بالدولة التركيَّة فاخرب قلعتها وتشدَّد في معاملة اهلها

ثمَّ عاد الحكمُ الى بني عثمان وعمّال دولتهم فجعلوا حمص قضاء تابعة للواء حماة وكانت في اواسط القرن الماضي قد قلّ اهلها فلم يتجاوزوا العشرة الآلاف ثمَّ تحسّنت احوالها ونمت زراعتها واتّسعت تجارتها حتى بلغ عدد اهلها قبل الحرب نحو ٦٠،٠٠٠ وذلك بفضل السكّة الحديديّة التي جعلتها على ممرّ تجارة سوريّة الشماليّة والجنوبيّة وقد فتح اليوم الخطّ الجديد بين طرابلس وحمص منفذاً جديداً لمحصولات حمص ولرواج تجارتها ومصنوعاتها فانَّ محاصيل غلّاتها كانت تبلغ نحو ١٥٠،٠٠٠ شنبل يقتطع منها البلد نحو ٨٠،٠٠٠ ويباع الباقي في الخارج واشتهرت حمص بنسوجاتها

الحريريّة والقزليّة والقطنيّة من كل اصناف الملابس وكان عدد انوالها بالغاً العشرين الفاً . لولا انّ الحرب الكونيّة اوقفت كلّ هذه الحركة فتقهقرت بها الصناعة والتجارة . على انّ الامل معقود بان الامور لن تلبث ان تعود الى رقيها السابق بهمّة مجلسها البلدي وذري الفضل من رؤسائها باتّفاقهم مع ارباب الانتداب الفرنسوي الذين يسعون بتنشيط الهمم وتعزيز الفلاحة والزراعة وكلّ ما يعود الى خير البلاد . ومن ادلّة الترقي في حمص الابنية الفخيمة التي تزداد كلّ يوم عدداً فتزين المدينة بحسنها وجمال هندستها فترى للمسلمين الدور الرحبة والمعاهد الطيّبة يسكنها افاضل قومهم من ذوي الحسب والنسب كآل الجندي وآل الاطاسي وآل الزهاوي والدروبي . وللنصارى مثلهم الابنية الحسنة والبيوت المهندسة كبيت الخوري وبيت الطرابلسي وغيرهم

وما تولنا بالرقي الادبيّ فانّ حمص كانت قبل ٤٠ سنة في مؤخر بقيّة انحاء الشام من حيث تهذيب ناشئتها رغماً من بعض الافراد الذين اشتهروا فيها سابقاً بين المسيحيين والمسلمين في الكتابة والخطابة ونظم الشعر . فلمّا دخلها المرسلون والراهبات ففتحوا المدارس واكبّوا على تعليم الاحداث وباشروا اعمال البرّ هبّت من رقدتها واخذ الحمصيّون يُعنون بتثقيف اولادهم وتخرّج البعض منهم في مدارس بيروت ودمشق واخذ روح المنافسة يعمّ رؤساء الطوائف ففُتحت مدارس شتى يفتخر الحمصيّون بتعليمها ومعلّميها . ومن الشواهد على رقي الآداب نموّ الصحافة من جرائد ومجلّات ومطبوعات مختلفة تنبئ بمستقبل حسن . وغاية ما نتمنّى ان تتناصر المدارس والصحافة فتخدم الوطن خدمة نصوحاً بحفظها على سنن الأدب ومراعاة كرامة الدين فانهما الركنان المتينان لكلّ مدنيّة حقّة والباعثان الى معارج النجاح والكمال ان شاء الله